أعجبته العبارة ، ولم يفهم المعنى ، فحاول أن يملأها بأي معنى .

ثبت العلاقة بين الحرب والوطن ، حتى تحولت الى هاجس . اذا ودعت شيئا فلا بد من أن تعانق شيئا آخر . وداع الحرب معناه لقاء الوطن . فهل هذا ما حدث ؟

شطب ما كتب . وحاول تركيب المعادلة من جديد : وداعا أيتها الحرب !. فالى أين يقودني هذا الوداع ؟ هل هو طريق لقاء الوطن !. اذا ودعت شيئا كهذا فلا بد من أن تودع نفسك .

أعاد النظر : آن للفكرة أن تسكن صخرة . وآن للدم أن يتحول الى سنبلة . آن للوطن أن يترجل عن صليبه وعن تجريدي . آن له أن يعود مـــن رحلة القصائد والمؤتمرات والتبرعات . وآن للوطن أن يصير وطنا !. عاديا ، وبسيطا ، ومملا ككل البلدان . آن له أن يكون تقليدا يوميا ، لا ابداعا شعريا !. وآن له أن يصير شيئا قابلا للملامسة .. واللعنة !.

كان الحارس نائما . وكان حلم سرحان يتجول ، حرا ، في فضاء الزنزانة :

من أجل هذا تكون الحرب . من أجل هذا يكون الموت . ونحن لا ننفق العمر كله ، ونهدر الحلم والرؤيا الا من أجل خيبة أمل واقعية واحدة . من أجل صدمة على حجر . ومن أجل ان نعرف كل العذاب ، الا عذاب الندم . أيها الوطن المتسكع بين الحروب ! لم تكن جميلا فحسب ، ولكنك كنت قاتلا في جمالك ، وجميلا في قتلك . فماذا صرت الآن ؟ لقد حملناك من أول العمر الى كل الحروب من أجل أن تكون فنكون . فماذا صرت الآن ؟ لقد نزلنا من القصيدة الى الرضا بالخيبة من أجل أن تكون . وماذا حدث ؟ حين كنت ـــ لم نكن . وحين كنا ـــ لم تكن . وفي الحرب قلنا : تكون . وهـــا نحن نقول للحرب : وداعا . فماذا تكون ؟.

عثر على نفسه يبكي . اختلط الدمع بالكلمات وبالحلم ، فتحول الوطن ، أمامه ، الى لوحة غامضة . « لم تكن واضحا الا في القلب أيها الوطن » .

وخاطب نفسه : يا سرحان ! انتظر قليلا . ان للجنون حكمة . ولكن ليس للحكمة جنون .

وحاول أن يعدل العبارة :

وداعا أيتها الحرب .. وداعا أيتها الحرية !.

أعجبه التعديل ، ولم يفهم المعنى ، فحاول أن يغزوه ، حاول أن يغتصبه .

واكتشف العلاقة بين الحرب والحرية ، حتى تحول الى هاجس آخر . وتذكر : حين جاءت الحرب كالفرح ، هكذا كتب دقيقتئذ ، غاصت جدران الزنزانة في لحمه ، فحمله وسار الى الشاطىء . ورأى من بعيد شعوبا تعثر على ارادتها وطاقاتها وتسير الى الحرب لتبدع حريتها .

وفي منتصف اقتحام الحرية ، أعادوا الشعوب الى بيوتها وأسرها . وأعادوا الحرب الى مؤسستها . وأعادوه الى الزنزانة . [انتهت الحرية وأعيد الناس الى واجباتهم الوطنية] .

باب واحد لأكثر من زنزانة .

ومرة ثانية ، كان سرحان يصب نفسه في مأزق . « أن أبدع مأزقي بيديّ خير لي من أن يعيروني فرحا بالاجرة من أجل أن يشرعوا الخطأ » .